(٤)
بيت الدكتور مالك الأمير

في أرقى منطقة بالمقطم ، بيتٌ يتكون مِن أربعة أدوار ، يملكه الدكتور مالك الأمير مع أخوين له وأختين ، هو أكبرهم ، وهو مَن يرعاهم بعد وفاة الأب والأم ، عمره فوق الثلاثين عاما ، يعمل طبيب قلب ، ويمتلىء قلبه بالحب لكل مَن حوله ، ويخرج الخير مِن يده باستمرار لكل الناس ، ويمنح العون لكل الفقراء دون أنْ يسأم أو يتغير ، ولديه ولد وبنت يحبهما كثيرا .

وزوجته مدام حنان تملك شركة سياحة وتديرها بنفسها ، تصغره بأربعة أعوام ، وهي ابنة صاحب مزارع دواجن كبيرة .. يسكنان بطفليهما الطابق الأول مِن البيت ، ويسكن إخوته بالطابق الثالث ، ويعيشون جميعا حياة رغيدة ، فالإيرادات التي تأتيهم مِن محال تجارة الأقمشة التي تركها لهم والدهم بالموسكي والعتبة كفيلة لأنْ تغنيهم وتغني نسلهم لسنواتٍ طويلة دون أنْ يصيبهم فقر أو حاجة مما قد يُصيب الناسَ مع تقلبات الزمان .

توقَّف باص مدرسة بلال وحبيبة أسفل البيت قبل العصر بقليل .. أسرع الطفلان صاعديْن درجات السلم ، أقبل بلال على أمه وارتمى بين أحضانها ، ثم أقبلتْ حبيبة وقبلتْ كلتا يديها مع عدم رضا الأم عن مسلكها هذا .. سألتهما الأم عن أخبار دراستهما .. أجابت حبيبة :

- الحمد لله يا أمي .. حصلتُ على الدرجة النهائية اليوم في تجويد القرآن

فأسرعتْ الأم وقالت في ضيق :

- ألا تهتم مدرستكما بغير القرآن؟! ثم ألم نتفق على أنْ تقولى ماما وليس أمي؟!

وفي المساء بعد العشاء قالت الزوجة لزوجها :

- ليكنْ في اعتبارك يا مالك .. مِن العام القادم سننقل الأولاد للمدرسة الإنجليزية

- ألن تتوقفي عن ذلك؟ .. قلتُ كثيرا إنَّ مدرستهما مدرسة إسلامية كبيرة ومشهورة

- لكنها تهتم أكثر بالدين والقرآن واللغة العربية .. الدنيا تتطور .. المستقبل هو للغات الأجنبية .. أنا أريد أنْ يكملا دراستهما في لندن

- لقد صرتُ لا أفهمكِ كثيرا يا حنان .. عموما الله المستعان

وأخرجتْ حبيبة مِنْ حقيبتها كراسة وفتحتها وناولتها لأبيها وهي تقول له :

- المدرسة تريد توقيعكَ هنا يا أبي

ونظر الأب فوجد ابنته قد حصلتْ على الدرجة النهائية في القرآن ، فغمرتْ السعادة وجهه ، وحمل ابنته ذات العشرة أعوام يقبلها ويقول لها :

- بارك الله فيكِ يا حبيبتي .. سآتيك بهدية جميلة غدا

- شكرا يا أبي

ونظرتْ الأم لهما بعضبٍ وقالت :

- كُفِّى عن أنْ تقولي يا أبي .. قولي بابا أو بابي

والتفتتْ لزوجها قائلة :

- وأنتَ يا دكتور .. ما هذا الكلام الذي تقوله؟

- أي كلام يا حنان؟

- أنتَ دائما تقول للأولاد " بارك الله فيكِ " و" جزاك الله خيرا " و" حفظكما الله " و" السلام عليكم " .. وحبيبة وبلال دائما ينادونني أمي .. ما هذا؟ .. لماذا تعقد حياتنا؟ .. ألن تتوقف عن هذا؟.. لا أحب أنْ يكبر أولادي معقدين ورجعيين

وغضب الدكتور مالك وقال لها :

- هكذا رباني أبي وأمي يا حنان .. وهكذا سأربي أولادي .. هل فهمتِ؟ .. فلا تعودي لمثل هذا الكلام .. لم أعد أتحمَّل ذلك منكِ كل يوم

وكظمتْ الزوجة غيظها وتركته داخلة إلى غرفتها ، ثم نادت على المربية أم السعد بصوت عالٍ ، فذهبتْ لها بخطوات سريعة ، فقالت لها مدام حنان :

- بعد أن يُنْهي الأولاد واجباتهما .. لا تنسي أنْ يشربا اللبن قبل النوم .. أنا سأنام .. عندي عمل مِن الصباح الباكر

ودخل الدكتور مالك الأمير إلى حجرة مكتبه ، وراح يراجع كشوفا وأوراقا خاصة بتجارة والده ، وكان هذا الأمر قد اعتاده كل يوم .. يعود مِن عمله في عيادته الخاصة قبيل المغرب ، فيتناول الغداء مع زوجته وطفليه ومعهم أخواه وأختاه في أحيان كثيرة ثم يصعد أخوته لشقتهم بالطابق الثالث بعد وقت يقصر أو يطول ، ثم تبدأ طقوس الضجر المتواصلة مِن زوجته حنان بسبب طريقته المحافظة في تربية طفلهما الكبير بلال وطفلتهما التي تصغره بعام حبيبة .

وكانت تلك الزوجة قد تعلَّمتْ في مدارس أجنبية ، لكنها قبل ذلك كانت ذات أصولٍ غاية في الفقر ، وهي دائما تحب أنْ تنسلخ مِن جذورها لتبدو على غير أصلها ، فأبوها الثري صاحب مزارع الدواجن بدأ حياته عاملا في إحدى المزارع ، وقد وصل هاربا لها مِن فقر أسرته بإحدى القرى الصعيدية ، وما هي إلا بضع سنوات حتى

كان صاحب مزرعةٍ مثلها ، ثم صار صاحب بضع مزارع ، وقد انسلخ مِن أصله قبل ابنته ، ولم يلتفت يوما لماضيه ونشأته بكل ما فيهما مِن أقرب الأقربين ، ونقل ذلك لأولاده ، والمال يفعل الأعاجيب السيئة في قلوب المُحدَثين في النعمة ، ويغير قشرة النفوس الضعيفة ليبدو منها الجهالة والشر والسوء ، لكن نفس المال لم يغير النفس القوية للحاج أحمد الأمير والد الدكتور مالك ، كان رجلا صاحب دين وعلم ، أورثهما لابنه الدكتور مالك ، لكن للأسف لم يصل ذلك الميراث الثمين لبقية أولاده إخوة مالك .

كان الولدان يدرسان بالجامعة الأمريكية ، والبنتان بالتعليم الثانوى ، وكان أخوهما الكبير الدكتور مالك هو مَن يحمل حملهم الثقيل كله ، يحمله دون ضجر كأمانة مِن والديه لا يجب إلا حفظها ، وكان يتلقى شرورهم بصبر ، ولم يرفض يوما طلبا لأحد ، يهيء لهم أفضل الثياب والطعام والسيارات ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويحفظ لهم أموالهم ونصيبهم مِن إيراد المحلات ببنوك إسلامية ، ومع ذلك كله لم يكونوا راضين أبدا عن الخير الكثير الذي يُنفقه عليهم ، كانوا يطلبون دائما المزيد ، وكانوا دائما لا يرضون عن مساعدته للفقراء ، وللحق فإنَّ معادنهم الأصيلة كانت مِن ذهب ، لكن للأسف تغيرتْ ثم صدأتْ بسبب تداولها بين يدي زوجة أخيهم حنان .

نزل إياد ومروان مِن شقتهم بالطابق الثالث إلى أخيهما الدكتور مالك ، ودخلا عليه بحجرة مكتبه .. طلب مالك مِن المربية أم السعد إحضار الشاي .. سألهما عن دراستهما ، واطمأنَّ إلى أنَّ كل شيء معهما يمضي بخير ، واطمأنَّ منهما على أختيهم سلمى وسالي ، لكنهما ذكرا له كل شيء باقتضاب ، فقد كانا يتعجلان الحديث عما جاءا لأجله .

وبينما همَّ إياد أنْ يبدأ بالكلام دخلت أم السعد بالشاي .. سألها الدكتور مالك عن الخادمة راضية : (هل عادت مِن إجازتها أم لا؟) .. وكان قد طلب مِن راضية أنْ تجد لهم خادمة أخرى مخلصة ومجتهدة مثلها ، فأعمال البيت كثيرة ، ومطالب إخوته لا تنتهي .. أخبرته المربية بأنها لم تعد بعد ثم خرجتْ ثم التفتَ الدكتور إلى أخويه الشابين ينتظر منهما أن يحدثاه عما جاءا مِن أجله ، فنظر له إياد نظرة توجس وحذر ثم استجمع كل شجاعته وقال له :

- نريد أنْ نحدثك في شيء يا دكتور
- خيرا يا إياد .. تفضل إني أسمعكما
- أنا أريد تغيير سيارتي
- تريد تغيير سيارتك !! .. أنا اشتريتها لكَ منذ عام فقط
- لكني أريد تغييرها .. فما المشكلة في ذلك؟!

فلم يُجِبْ عليه الدكتور مالك ، إنما التفت إلى مروان وقال له :

- وأنتَ يا مروان .. هل تريد تغيير سيارتكَ أيضا؟
- لا ليس الآن .. لكن توجد زميلة لي أريد أنْ أخطبها
- مروان يا حبيبي .. أنتَ لا تزال صغيرا على ذلك .. وما زلتَ تدرس .. انتظر حتى تحصل على شهادتك الجامعية بعد ثلاث سنوات ثم تنهي خدمتك في الجيش وشعر مروان بالغضب فقاطعه قائلا :
- وما دخل شهادتي وخدمتي بالجيش في أنْ أخطب؟! .. أم أنك تريد تعقيد الأمور كعادتك

ونظر الدكتور مالك له بغضب ، لكنه تمالك نفسه وقال له :

- كُف عن ترديد كلام غيرك يا مروان .. واعلم أني المسئول عنكم ولا أريد إلا الخير لكم .. أنا مكان والدنا الله يرحمه .. لو كان حيا ما وافق أبدا على أنْ تخطب في هذه السن

وتدخل إياد قائلا له :

- وأنا يا دكتور .....

- أنتَ ماذا؟

- موضوع السيارة

فنظر له الدكتور مالك قليلا ، ثم قال له برفق :

- ليس الآن يا إياد .. سيارتك لا تزال جديدة .. انتظر سنة أخرى فقط وآخذها أنا منك .. ثم أشتري لكَ السيارة التي تريدها .. أنتَ تعرف أنَّ سيارتي قديمة جدا

فنظر إياد لمروان وقال بصوتٍ منخفض لكنه مسموع :

- كل شيء انتظر انتظر.. لقد تعبنا

وقال مروان لأخيه مالك بصوتٍ عالٍ دون خجل :

- يبدو أنك لستَ مشغولا إلا بالفقراء وإنفاق أموالنا عليهم .. لا نعرف متى سيتوقف ذلك

فقال الدكتور مالك لهما بكل هدوء :

- تلك وصية والدنا لي .. أنْ أظل أساعد الفقراء .. ولن أتخلى عن ذلك .. في أموالنا حق لهم .. إنَّ الله يحفظنا ويضاعف في أموالنا بسبب العطف عليهم .. هداكما الله

وكان اليوم التالي هو يوم الخميس ، اليوم المخصص مِن كل أسبوع لتوزيع المعونات الأسبوعية لمئات المحتاجين ممن يقصدون بيته ، وقد أسند ذلك لأشخاصٍ يثق بهم .. عادت زوجته حنان مِن عملها عصرا ، وبينما كانت تخرج مِن سيارتها انطلقتْ منها نظرات غاضبة على طوابير الناس المصطفة أمام البيت .. دخلتْ شقتها فوجدتْ إياد ومروان وسلمى وسالي في انتظارها ، تلقتهم بابتسامة كبيرة مصطنعة .. شكوا لها أخاهم الدكتور مالك ، فأخبرتهم أنها أيضا كالعادة غير راضية عما يفعله ، وأخبرتهم بأنها سوف تساعدهم في إيقاف تلك الأموال التي تخرج مِن بيتهم لتضيع على الفقراء والأرامل واليتامى .. قالت سالي :

- يجب أنْ نطلب منه توزيع تركة أبينا علينا .. ولينفق عليهم مِن ماله الخاص .. هو حر

قالت زوجته حنان :

- لا ليس حرا .. فهو ليس ماله الخاص .. إنه مالنا أنا وبلال وحبيبة

وقال مروان غاضبا :

- المشكلة أنه سبق وذكر كثيرا أنَّ وصية أبي له أنْ ينفق مِنْ أصل مالنا جميعا

قال إياد في نبرة غير راضية :

- ربنا يسامحه .. ألم يكن يعلم أننا أولى بكل جنيه مِن أموالنا؟

وقالت سلمى :

- علينا أنْ نتحدث معه بهدوء .. ونخبره بما نريد

فقالت الزوجة حنان :

- لا .. لن ينفع معه أي حديث .. اصبروا قليلا وسأجد حلا لذلك

وفي صباح الجمعة تناول الدكتور مالك طعام الفطور مع طفليه وزوجته حنان دون أنْ تحدثه الزوجة في شيء خاص بضجر إخوته منه ، وطلب الدكتور مالك مِن المربية أم السعد الصعود لإيقاظ أخويه إياد ومروان مِن نومهما حتى لا تفوتهما صلاة الجمعة ، ثم خرج إلى المسجد مصطحبا معه ابنه بلال .

وأثناء الصلاة جاءت الخادمة راضية ومعها الخادمة الجديدة وعد .. فتحتْ المربية أم السعد لهما الباب .. ألقتْ نظرة سريعة منها على وعد ، ودخلتْ راضية وحدها .. وقفتْ أمام مدام حنان تخبرها عن نظافة الخادمة الجديدة وأمانتها ، بينما ظلتْ الخادمة وعد خارج الشقة بجوار الباب ترسل أذنها بإنصات لحوارهما ، ثم أذنتْ لها مدام حنان أنْ تدخل .

دخلت وعد على مدام حنان وهي تتعمد أنْ تضع عينيها على الأرض ، لا تلتفت يمينا أو يسارا ، وكانت مدام حنان تجلس واضعة قدما على الأخرى ، ومِن فرط جمال الخادمة الذي لحظته حنان عندما رأتها أنزلت قدمها بطريقة لا إرادية ، وظلتْ لفترة تتفحصها مِن أسفلها لأعلاها دون كلام ، ثم سألتها :

- ما اسمك؟
- خدامتك وعد
- كم عمرك؟
- لم أصل للعشرين بعد
- يبدو عليك أنكِ متزوجة يا وعد
- نعم أنا متزوجة
- هل عندك أولاد؟
- لا يا مدام

- هل خدمتِ في البيوت قبل ذلك؟
- لا
- أهم شيء عندي النظافة والأمانة يا وعد .. فاهمة؟
- أكيد فاهمة يا هانم

والتفتتْ مدام حنان لراضية وقالت لها :

- أظنها هنا على مسئوليتك يا راضية

قالت راضية بعد أنْ ألقت نظرة على وعد :

- اطمئني يا مدام .. وعد ستعجب حضرتك جدا .. وأي تقصير منها أنا المسئولة
- هذا كلام جميل .. وليكن في حسابكما أنكما ستبيتان هنا يوميا .. وكل واحدة سيكون لها إجازة ثلاثة أيام كل أسبوعين بالتناوب

قالت وعد :

- أنا موافقة على كل شيء يا مدام

فنظرتْ لها مدام حنان وابتسمتْ ثم نظرتْ لراضية وقالت :

- خذيها يا راضية وعرفيها كل شيء

وانصرفتْ الخادمتان إلى المطبخ ، وما إنْ دخلتْ وعد ، واطمأنتْ إلى أنهما وحدهما حتى راحت تدقق النظر في كل شيء ، وتفتح كل الأدراج ، وتتحسس بيديها الرخام وخلاطات المياه وأطقم الملاعق والأطباق والأكواب الفاخرة ، وتفتح الثلاجة والديب فريزر وهي تغمغم بكلمات كثيرة ، وراضية تتابعها لعلها تتوقف عما تفعله ، فلما زادت في ذلك قالت لها وهي تتعجب مِن حالتها :

- وعد كُفِي عن ذلك .. يبدو أنكِ لن تعمري كثيرا في هذا البيت

- بيت!! .. نحن في جنة لا بيت .. نحن فقراء جدا يا راضية .. جدا
- الحمد لله على كل حال

فضحكتْ وعد :

- لم أكن أتصور أنهم أغنياء إلى هذه الدرجة
- ربنا يزيدهم .. أنا وأنتِ هنا للخدمة فقط .. هيا نلتفت لعملنا

فقالت وعد وهي تمرر يديها تحت الماء الساخن ثم تنقل الخلاط للبارد :

- لماذا خُلِق الفقر مع الغِنَى؟ .. لماذا هناك فقراء وأغنياء؟
- ما قصدكِ مِن ذلك يا وعد؟
- قصدى أنَّ الغِنَى وحده يكفي ، لماذا الفقر؟ لماذا المرض؟ لماذا الموت؟
- أعوذ بالله مِن الشيطان الرجيم .. استغفري ربنا
- ماذا فعلتُ حتى أستغفر؟ .. أمرك غريب يا راضية

فصاحت بها راضية :

- والله إنَّ قلة الكلام معكِ أفضل

وخرجتْ الاثنتان مِنْ المطبخ إلى حجرة الخدم ، فغيَّرتا ملابسهما ، ولبستا ملابس عمل لا يظهر منها أنهما غجريتان ، وسُمع بالخارج صوت الدكتور مالك يتحدث إلى طفليه بلال وحبيبة ، فأصغتْ وعد لما يدور ، ثم التفتتْ لراضية تسألها :

- هل هذا صاحب البيت؟
- نعم هو .. دائما يحب أنْ يلاعب طفليه رغم كبرهما .. روحه فيهما
- ومدام حنان؟
- ما لها مدام حنان؟

- هل يحبها؟
- ما شأنكِ بذلك؟
- إنها ليست جميلة .. أراها امرأة عادية
- ليس شرطا أنْ تكون المرأة جميلة ليحبها الرجل ويتزوجها .. الجمال ليس كل شيء يا وعد
- إذن أخبريني عن الشيء الذي جعله يتزوجها
- وعد .. تعلمي مني يا أختي أول درس في خدمة البيوت .. هو أنْ تكوني عمياء خرساء بكماء
- أنا فقط يا راضية أقول هذا الكلام بيني وبينك
- كلامك الكثير ليس علامة خير
- فقط أسألكِ .. ما مزايا مدام حنان تلك لتعيش في هذه الجنة؟
- الجنة يعيش فيها مَن يستحقها يا وعد .. ليس لها شروط كشروطك
- أرى أنَّ الجنة لكل ما هو جميل فقط
- الجمال ليس كل شيء يا وعد .. الأهم العمل الطيب والاحترام
- فعلا الدنيا حظوظ .....

وطرقتْ المربية أم السعد الباب عليهما ، وألقتْ السلام على راضية ، ثم نظرتْ لوعد وقالت :

- أنتِ .. الدكتور مالك يريدكِ

فنظرتْ لها وعد بغضب ثم قالت بعجرفة :

- اسمي وعد
- الدكتور يريدكِ يا وعد

وابتسمتْ وعد ، واتجهتْ لمرآة التسريحة تَعْدِل مِن وضع ملابسها حول صدرها وأسفل ظهرها مِن الخلف ، وتسوّي حاجبيها ، ثم رفعتْ جانبا مِن ثوبها ومسحتْ مرات على أسنانها تلمعها بطريقة مقززة ، ثم مررتْ لسانها على شفتيها لتزيدهما حمرة ، والمرأتان ينظران لها باستهجان ، ثم خرجتْ خلف المربية .

كان الدكتور مالك يجلس ناظرا في بعض الأوراق وبجواره حبيبة وبلال ، وقريبا منهما كانت مدام حنان تجلس إلى جهاز كمبيوتر مكتبي تُنهي أعمالا خاصة بشركتها للسياحة .. رفع عينيه إلى وعد التي صوبتْ عينيها إليه دون خجل وعلى وجهها ابتسامة وجرأة ، وللوهلة الأولى تسمرتْ عينا الدكتور مالك عليها دون أنْ ينطق بكلمة لفترة ، ولم يكن هذا بسبب جمالها اللافت الأخاذ فقط ، ولكن أيضا لشيء خفي غامض تغلغل في أعماق نفسه قاده لذلك .

يقولون إنَّ الانطباع الأول يدوم ، لكن ماذا لو كان الانطباع الأول غامضا كما حدث مع الدكتور مالك تجاه الخادمة وعد؟ فأي شيء يدوم معه حتى تنجلي الأمور؟ .. ألم أقل إنَّ مِن رحمة الله علينا أنْ غيَّب عن الإنسان الكثير؟ .. فما دام الإنسان لا يمكنه أنْ يغير شيئا ، وطالما أنَّ المكتوب على الجبين لا بد وحتما أنْ تراه العين ، فإنَّ هذه الغيبيات ضرورة حتمية حكيمة ، وإلا فماذا لو عرف المظلوم في أول تعارف بينه وبين ظالمه أنه سيُظلَم منه يوما؟ .. وماذا لو عرف المقتول في أول لقاء له بشخص أنَّ هذا الشخص هو الذي سينهي حياته بالقتل أو يكون سببا له؟ .. وماذا لو عرف شعبٌ ما وهو يختار حاكما له أنَّ اختياره هذا سيكون سبب المعاناة المفجعة التي سيظل سنينا يحياها حتى يزول؟

فشكرا للرحمن عالم الغيب والشهادة أنْ احتفظ بعلم كل شيء مِن ذلك لنفسه ، وحمدا له أنْ خلق صدمة الألم المباغتة فوقانا مِن معاناة الألم المتواصل

في انتظار الألم القادم ، وأنْ خلق النسيان والصبر حتى نتمكن مِن مواصلة العيش حتى حين ، وأنْ خلق الجنة لتكون ثمرة تلك الحياة الطويلة البائسة .

وقفتْ الخادمة وعد أمام الدكتور مالك .. صارت تنقل عينيها ما بين النظر له ولطفليه بجانبه والنظر في الأرض .. لم يسألها نفس الأسئلة التي سألتها لها زوجته حنان ، إنما سألها :

- هل تحافظين على الصلاة أم لا؟

انطلقتْ نظرة لها مِن مدام حنان بينما قالت وعد كذبا:

- طبعا أصلي دائما وأصوم ..وأتمنى لو أذهب للحج أو العمرة .. لكن الظروف
- إن شاء الله تذهبين .. وإن شاء الله يروق لكِ العمل في بيتنا
- ربنا يكرم حضرتك .. أنتم بيت عزوكرم
- اذهبي الآن وأحضري لي كوبا مِن الشاي

ونظرتْ وعد للزوجة ، وقالت لها :

- وحضرتك يا مدام .. ماذا تحبين أنْ تشربي؟
- ولا حاجة .. فقط أخبري راضية وأم السعد أني أريدهما .. وأنتِ معهما

وذهبتْ وعد فأحضرتْ الشاي ، وذهبتْ ثم عادت بزميلتها فنظرت مدام حنان لأم السعد وقالت : خذي حبيبة وبلال لحجرتهما ليبدلا ملابسهما

ثم نظرتْ لراضية وقالت :

- وأنتِ يا راضية .. ضعي الطعام الذي جاء جاهزا مِن المطعم على السفرة

ثم نظرتْ حنان نظرة مختلفة لوعد وقالت لها :

- وأنتِ يا وعد .. اصعدي للدور الثالث .. وأخبري الأولاد والبنات أنْ ينزلوا للغداء